

الفصل: الرابع

# وحدة: تاريخ المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء إلى غاية القرن 19

الأستاذة: حميد الفاتحي

المحاضرة رقم: 2

السنة الجامعية

2021-2020

جامعة ابن طفيل	السنة الجامعية: 2020-2021
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	وحدة: تاريخ المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء
شعبة التاريخ والحضارة	الأستاذ: حميد الفاتحي
الفصل الرابع	المحاضرة رقم: 2

## أولا : قراءة تركيبيه في طبيعة مصادر ومراجع تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية

يجيب المؤرخ الإفريقي كي زيربو عن التساؤل الذي طرحته بعض الجهات البحثية الأوروبية: هل لإفريقيا تاريخ؟ بالقول إن إفريقيا تاريخها؛ فقلد انقضى الزمن الذي اعتبرت فيه هذه القارة هامشية مستعبدة. وليس ما يهم هو كتابة تاريخ إفريقيا للرد على التأريخ الاستعماري، بل تغيير المنظور والعودة إلى العلم والبحث في المنهج الكفيل بإعادة كتابة التاريخ الإفريقي<sup>1</sup>.

وفي هذا السياق، تعتبر الدراسات الإفريقية على اختلاف اتجاهاتها وموضوعاتها من أبرز اهتمامات الباحثين على تنوع اختصاصاتهم في الوقت الراهن، وأدى هذا الاهتمام الكبير بإفريقيا إلى تحطيم نظرة بعض الجهات الأوروبية التي تدعي أن القارة الإفريقية لم تكن شيئا مذكورا قبل التغلغل الاستعماري فيها<sup>2</sup>.

ولطالما ظلت مصر بحضارات وادي النيل وشمال إفريقيا بالترسبات الحضارية المتلاحقة، موضع اعتقاد راسخ بأنها المناطق التي لها تاريخ. وكان المعتقد أن إفريقيا جنوب الصحراء ليس لها ماضٍ ذا بال لارتباطها بتجارة العبيد والذهب في أحسن الأحوال، وأنه لم يكتب من تاريخها سوى ما دَوَّنَهُ المكتشفون والمستعمرون من أهل حوض البحر المتوسط في العصر الحديث وفي التاريخ المعاصر. وبذلك، يجمع الباحثون على أن تاريخ بلاد السودان هو قبل كل شيء قضية مصادر، ذلك أن قلة المادة المصدرية، وفقرها وتحيزها وتحريفها للوقائع إن وجدت، يمثل عقبة كأداء، أرهقت المؤرخين، ودفعت الكثيرين منهم إلى الاستشهاد بكتابات متأخرة جدا<sup>3</sup>.

غير أن هذه النظرة لا تصمد مع وجود عدد من الروايات الشفوية الإفريقية، بالإضافة إلى ما كتبه الرحالة والعلماء العرب، وقلة مما كتبه الأفارقة بأنفسهم باللغة العربية. وهذه تلقي الضوء على أحداث جرت في أجزاء من السودان بتقسيماته: الغربي والأوسط والشرقي. ومن هذا المزيج من المصادر، يمكن للباحث استخلاص تاريخ خاص بإفريقيا يخص التنظيمات القبلية والتطورات المحلية والإقليمية اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا، وثقافيا ودينيا. هذه المجتمعات، وإن ظلت تواصل عمليات التطور الذاتي، فإنها في الآن نفسه تفاعلت مع مؤثرات حضارية إسلامية تلتها الهجمة الأوروبية بتنظيماتها وأجهزتها المختلفة التي عملت على إخضاع القارة الإفريقية<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - كي زيربو، المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد الأول، إفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، إشراف ب. أ. أوغوت، منشورات اليونيسكو، باريس، 1983م، صص 19-20.

<sup>2</sup> - العلوي القاسمي، أصول الروابط، ص 123.

<sup>3</sup> - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي 1230-1430م، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1420هـ / 1999م، ص 17.

<sup>4</sup> - نفسه، الصفحة نفسها.

ويقول الباحث أحمد الشكري، قد يكون صحيحا ما قاله ريموند موني R. Mauny من أن المعلومات التي حصلنا عليها من قِبَل الملاحين البرتغاليين قرابة نصف قرن (1450-1500م) تفوق من حيث الكم والنوع ما أفادتنا به المصادر العربية طوال ثمانية قرون (من ق 7 إلى 15م). ليس لأحد أن يعترض على مثل هذه الأقوال، بيد أنها تبقى صحيحة بالنسبة للمناطق الساحلية لإفريقيا الغربية، وليس الداخلية التي لم يكتشفها الأوروبيون إلا مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي من خلال رحلاتهم المتوالية. ويكفي لندلل على هذا الواقع، أنه في الوقت الذي كانت إمبراطورية سونغاي تعرف أوج قوتها أيام الحاج أسكيا محمد (1493-1528م)، كانت الكتابات البرتغالية عن الفترة نفسها تحيلنا على حالة الفوضى السياسية والاجتماعية لدى القبائل والشعوب السودانية الساحلية، وفي نفس الوقت تحدثنا عن التجارة الصامتة داخل بلاد السودان وهو وصف يلوك ما تحدث عنه بطليموس في عصور تاريخية غابرة<sup>5</sup>.

إن التراكم المعرفي المتوفر حاليا حول تاريخ غرب إفريقيا، تتحاذبه ثلاثة خطابات تاريخية:

- خطاب من خارج إفريقيا وهو أوروبي أساسا.

- خطاب إفريقي.

- خطاب عربي إسلامي<sup>6</sup>.

ولكل واحد من هؤلاء مميزات خاصة، الأول اكتسب تجربة طويلة في التعامل مع تاريخ المنطقة، وتمكن من تطوير دراساته وأبحاثه سواء على المستوى المنهجي أو الموضوعي، وذلك بفضل تمكنه النسبي من مناهج البحث، وتحقيقه تراكما كميًا في الإنتاج التاريخي، ومجموع هذه المعطيات أهله لأن يحتل كرسي الريادة دون منازع<sup>7</sup>.

أما الخطاب الإفريقي، فإنه بحكم حدائته ما يزال يتخبط في مشكل الهوية والبحث عن الذات، وقد تأخذ المسألة صبغة حادة عند بعض المؤرخين الأفارقة، فيطالبون بالرجوع إلى التقاليد الوثنية السودانية، وذلك لتأكيد تفرد الحضارة السودانية وقدرتها على العيش دون تأثير الحضارات الأخرى إسلامية كانت أو مسيحية. بيد أن المشكل لا يأخذ طابع الحدة عند الباحثين الأفارقة المسلمين والمسيحيين، حيث نجدهم معتدلين في آرائهم. ويتميز الخطاب العربي الإسلامي بكونه لا يزال يافعا، وفي بداية الأمر كان همه الدفاع عن مزاعم الأوروبيين، إلا أن عدم تخصص المؤرخين العرب في تاريخ غرب إفريقيا، وعدم إحاطتهم بالمشاكل المنهجية والموضوعية، جعل الجيل الأول منهم غير قادر على مسايرة ومناقشة نتائج الأبحاث والدراسات الأوروبية والإفريقية المتخصصة والمتطورتين. على أن ذلك لا يمكنه أن ينسينا الجهود الجادة التي بذلها بعض الباحثين<sup>8</sup>.

<sup>5</sup> - نفسه، ص37.

<sup>6</sup> - نفسه، ص44.

<sup>7</sup> - نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>8</sup> - الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني، صص44-46.